المحاضرة الثامنة

الهوية الافتراضية

تمهيد:

يحتدم الجدل في شأن طبيعة الهوية الإنسانية ونمط اشتغالها، من أين تأتي هوية الشخص؟ هل يمكنه أن يختار هويته؟ أم أنها أمر يخصه به الآخرون؟ وهل تستمد من خصائص داخل الشخص فتكون الأنا معيارا لتحديد الهوية؟ أم أن معيارها هو الآخر، حيث يدرك الفرد ذاته من خلال الآخر؟ كيف تتموضع الهوية في سائر التخصصات العلمية من فلسفة وعلم اجتماع وعلم نفس؟ هل مصدر الهوية الرئيس نفسي أم بيولوجي أم فكري أم ثقافي؟ هل الهوية انعكاس لسمات طبيعية أم بناء اجتماعي؟

ما هي أهم العوامل المساهمة في تشكيل هوية الشخص؟ وهل الهوية أمر مستقر ثابت أم مسألة متغيرة متعددة؟ وفي سياق التحالفات بين التقنية والثقافة، والتي ساهمت في تعميق الهوية بين عناصر الهوية، بفعل الطبيعة التفكيكية التي تتأسس عليها الرؤية الحداثية المعاصرة، هل يمكن الحديث عن هوية فردية (ذات) جديدة الكترونية مختلفة عن الهوية الفردية التي تتشكل في الحياة الاجتماعية؟ وبتعبير آخر هل نحن في الشبكة بخلاف ما نحن عليه في حياتنا الاجتماعية؟

يمكن لقائمة الأسئلة حول الهوية أن تزداد طولا واتساعا باتساع الحقول المعرفية والمفاهيمية والإشكالية التي تطرحها لفظة هوية، ويكفي أن نشير إلى ما هو واضح : إن الهوية مكون أساس من مكونات الذاتية الإنسانية إذ تقع الهوية في قلب الصراعات الأبدية الهادفة إلى محاولة القبض على تعريف نهائي للإنسان.

أولا: الهوية : حفر في دلالات المفهوم.

1- السياقات اللغوية والفكرية والفلسفية لمفهوم الهوية.

أ- وضع المفهوم في سياقاته اللغوية.

ب- وضع المفهوم في الفكر الفلسفي القديم.

ت- وضع المفهوم في علم النفس.

ث- وضع المفهوم في علم الاجتماع.

ستيورات هال: والمفاهيم الثلاث للهوية:

يرى هال أن الهوية "القديمة" والتي شكلت لفترة طويلة قاعدة لاستقرار الفضاء الاجتماعي هي الآن في طريقها للزوال، الأمر الذي يستولد هويات جديدة، ويجعل الفرد المعاصر، بصفته ذاتا موحدة، في حالة من التفتت، ويعتبر الدارسون أن ما يسمونه بأزمة الهوية جزء من عملية تغيير أشمل تقتلع البنى والصيرورات المحورية للمجتمعات الحديثة من مكانها، وتضعف الأطر التي أعطت الأفراد نقاط ارتكاز ثابتة في المجال الاجتماعي. يعتقد ستوارت هال أن فكرة الهوية مرت عبر ثلاث مراحل سيطرت في كل منها فكرة الهوية على التفكير السائد حول المجتمع وهذه الأفكار هي:

- **الذات التنويرية.**
- **الذات السوسيولوجية.**
- **ذات ما بعد الحداثة.**

الانزياح من الهوية الوجود إلى الذات بمفهومها الحديث.

ثانيا: الهوية الافتراضية: تمظهراتها، تصنيفاتها ورهاناتها.

1- الهوية عبرشبكات التواصل من التنشئة إلى البناء.

إذا كان مفهوم الهوية "ذا خاصية متعددة الأشكال نهم الدلالة لا يستنفده معنى محدد"، على حد تعبير كلود برنار، وكما سلف وأن تناولناه، فإنه مع الفضاءات التي فتحتها شبكات التواصل الاجتماعي اتخذ أبعادا أوسع مدى وإشكالات أكثر حدة

وإذا كانت سمة الهوية ما بعد الحداثية التشرذم والتعدد والتشتت فإن مرد ذلك هو تعدد مصادر الهوية الفردية، ودخول ثقافة تكنولوجيا الإعلام والاتصال كعامل حاسم في عمليات التنشئة الهوياتية، أين يتحول ويتحور كل ما هو اجتماعي وثقافي ونفسي ضمن إطاره الخاص ويندرج طوعا أو كرها في نسقيات زمنية كونية متسارعة شديدة التغير والتبدل في إطار الفضاءات التواصلية الافتراضية التي تستحدث ممارسات جديدة ومفاهيم جديدة وأطرا اجتماعية جديدة.

وعليه تبدو تنشئة الهوية الفردية مرتبطة أكثر من السابق بالاختيار ضمن "عمل هوياتي" un travail identitaire يتردد على مصادر ومرجعيات متنوعة من غير الاكتراث ضرورة بأصولها الاجتماعية والثقافية والحضارية، أو حتى شغل النفس بإيجاد تناسق بينها، وإنما تتخذ أحيانا من قبل المراهق والشاب كلعبة ورهان، في الوقت نفسه، بينما تتراخى الصفة الآمرة للتنشئة الاجتماعية التقليدية كما يجسدها الأب والمعلم والكثير من الكبار الموقرين أينما كانوا.

حيث تُظهِر آليات استحداث وتقمص ذوات متنوعة عند الولوج إلى الفضاء الانترنتي التفاعلي مدى مساهمة السياقات الاجتماعية في تأسيس الذات الفردية (من خلال النماذج والمعايير والتماهيات التي تلجأ إليها) كما أنها تحيل إلى العجز الذي تعيشه فضاءات التنشئة في إدارة هذه الذات، فمن ناحية نلاحظ أن هذه الذوات المستعارة غالبا ما تمثل نماذج حياتية مرجعية، ومن ناحية أخرى يمكن معاينة حرية

الاقتباس، حيث أن التماهي أو التوحد مع هذه الذات أو تلك يتم بعد تكييفها مع ما يتناسب من فنتازميات الذات المستعيرة، إن مجموع المؤسسات والمرجعيات العقيدية والإيديولوجية الفاعلة في حياة الأفراد، لم تعد تملك الوهج الذي كانت تملكه من قبل في إدارة الذات، سيادة اللايقين خاصة بعد فشل الحكايات الكبرى، وهو ما أوكل أمر إدارة الذات إلى نفسها بما يشبه الاكتفاء الذاتي المرجعي، مع ما يستتبع ذلك من إحساس بأن الذات قد غدت "طافية ولا يقينية" ومتغيرة ورخوة. ضمن هذه السياقات المتسمة برخاوة الهوية الفردية يتم الأخذ بذوات افتراضية كعكاكيز هوياتية من طرف فئات كبيرة تعيش حالة صراعية بين ما تريد أن تكون وما هي بالفعل، بين تصور مثالي للذات والذات كما هي.[1]

ثالثا: الهوية على الخط والذات الرقمية...رهانات متزايدة:

1- **رهانات أخلاقية**: لا شك في أن التداول الافتراضي في المجتمع الشبكي ذي السياق الثقافي الكوني يفترض مساءلة حقيقية حول دلالات الانتماء بحكم أن الوجود الافتراضي يفترض على المستخدم التردد على ثقافات عدة بل التردد على أوطان مختلفة، أو حتى التردد على هويات فانتازمية متعددة، متجاوزا الحدود الجغرافية والزمانية التي تؤطر وتقولب معايير الفضاء والوجود الإنساني، هذا التجاوز وهذا الانفتاح يخلق تحديات ورهانات أخلاقية متعاظمة

2- **رهانات تواصلية:** على اعتبار أن التواصل بين الهويات الرقمية ضمن الفضاءات الافتراضية متحرر من ضوابط الألفة والمعايير الاجتماعية الرسمية وغير ملزم بمقامات التواصل التقليدية فإنه يخلق براديغمات تواصلية مستحدثة ومعقدة تؤكد على أهمية القيم التعبيرية داخل الفضاء الاجتماعي الافتراضي الذي أصبح مصدرا للممارسات وأفقا رمزيا يتيح للأفراد أن ينسجوا ويطوروا أنواعا جديدة من الروابط والسلوك، فالتقنيات الاتصالية الجديدة تتسم بمرونة وحرية كبيرتين في التحرك تمنح الأفراد استقلالية ونجاعة متزايدتين في التوزيع العقلاني للزمن الشخصي[2]

---

[1] الصادق رابح، **الانترنت كفضاء لتشكل الذات**، مرجع سبق ذكره، ص 20.

[2] عادل بن الحاج رحومة، **تنشئة الهويات الفردية عند الشباب عبر الفضاءات الاتصالية والمعلوماتية**، مرجع سبق ذكره، ص 142.

3- **رهانات اقتصادية:** إلى جانب الرهانات الأخلاقية والثقافية التواصلية توجد أبعاد أخرى اقتصادية للممارسات الهوياتية عبر الفضاءات الافتراضية، على اعتبار الشبكات الاجتماعية صناعة أولا وقبل كل شيء،